تعليق على مقال

نصير الدين الطوسي [1]

كنت ذكرت الخواجه نصير الدين الطوسي في (تاريخ علم الفلك في العراق) سنة ١٣٧٢ هـ — ١٩٥٣ م في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . واوضحت عن مؤلفاته وبيّنت انه :

« يعدّ من أكابر المشتغلين بالفلك والرياضيات من فروع الفلسفة الأفلاطونية الحديثة . قطع الاسماعيلية بصحة هذه العلوم واعتبروها عقيدة فلم ينفك منها الطوسي . والغرض المعرفة العلمية ، وهي حاصلة . وكان هولاكو يعتقد بصحة التنجيم مثلهم ، ولذا قرّبه هولاكو خان . وتظهر قيمة مؤلفاته من عناية كثير من العلماء بها . وإذا فقدت هذه العلوم مكانتها العلمية بعض الشيء فانها لم تفقد مكانتها التاريخية ، ولا صلتها بالعقائد الغالية . وعلاقة الخواجه الطوسي بالعراق تبدأ من ايام اكتساح هولاكو العراق سنة ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م . ودامت متصلة ، فنال منصب صدر الوقوف في بغداد بعد الأستاذ صفي الدين الأرموي . ورد العراق مراراً وأخذ كتبها لخزانة رصد مراغه » اهـ [2] .

ومن هذا يفهم انني قلت (قطع الاسماعيلية بصحة هذه العلوم واعتبروها عقيدة فلم ينفك منها الطوسي . والغرض المعرفة العلمية وهي حاصلة) . لم ينفك من هذه العلوم واستمر بها من تاريخ اتصاله بهولاكو إلى أن توفي فكانت المعرفة

---

(١) نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج ٣٦ ص ٢٤١ ـ ٢٤٧ .
(٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق لسنة ١٩٥٣ ص ٨٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هي المطلوبة سواء عدّها عقيدة أو لم يعدها . والمسلمون حاولوا أخذ هذه المعرفة منه . وهو شارح (كتاب الإشارات) لابن سينا من كتب الإسماعيلية أو الباطنية . وما زال يدرس إلى ما بعد سقوط بغداد . ولم يبدل منه إلا مقدمته التي قدمها إلى أحد أمراء الإسماعيلية .

ثم ذكرت ذلك في (تاريخ علم الفلك في العراق) المطبوع سنة ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٨ م بتفصيل . وكنت قلت فيه (بعد أن ترجمته ترجمة وافية) :

« وحياته الأولى بعد أن أتم تحصيله كانت بين الإسماعيلية . وأظهر فيها من المؤلفات : روضة القلوب ، ورسالة في التولي والتبري ، وتحرير المجسطي ، وتحرير اقليدس ، وتحرير أكرمانالاوس ، وأخلاق ناصري ، وروضة التسليم ، ومطلوب المؤمنين ، وشرح الإشارات ، وكتب التنجيم ، وأخرى في الفلك . وكتب باقي مؤلفاته بعد أن فتح هولاكو بغداد . وتوفي في ١٨ ذى الحجة سنة ٦٧٢ هـ — ١٢٧٤ م في بغداد ، ودفن في الكاظمين . وكان قد تم الرصد في السنة التي توفي فيها الخواجه الطوسي [1] » اهـ .

ومن هذه يفهم انه كتب في عقائد الاسماعيلية روضة القلوب ، ورسالة في التولي والتبري ، وروضة التسليم ، ومطلوب المؤمنين ، وشرح الإشارات . وهذه الكتب الأخيرة من روضة التسليم وما بعدها قد طبع . وهي في عقائد الإسماعيلية . وكتبت باللغة الفارسية ما عدا كتاب شرح الإشارات لابن سينا . وإن كتاب أخلاق ناصري كتبه بالفارسية ، وقدمه إلى محتشم قهستان الإسماعيلي ، وأيّد فيه مذهب الإسماعيلية ؛ فقد قضى بين ظهرانيهم ربع قرن . وبعد أن أتم تحصيله التحق بهم . ومن مؤلفاته في عقائدهم ما طبعه الآغاخانية في هذه الأيام . وإنهم عدّوه من أكابر علمائهم ، وإنه مات على المذهب الإسماعيلي وأظهر غيرُه تقيةً .

---

(١) تاريخ علم الفلك في العراق ص ٣٤ طبع بمطبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٨ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أعلن عقيدته الإمامية في طهران عند مجيء هولاكو إليها . وبقي على هذا المذهب إلى أن توفي سنة ٦٧٣ هـ ؛ إلا أنه خلال ذلك أي بعد اكتساح بغداد قدم كتاب (أوصاف الأشراف) إلى علاء الدين عطا ملك الجويني ، وفيه ما يؤيد عقائد غلاة التصوف من وحدة واتحاد وحلول ، وهي عين عقائد الإسماعيلية ؛ كما تأيد ذلك بما قاله ابن دحية الكلبي في كتابه النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس قال :

« وكانت لهم — للعبيديين — أيام مأثورة ، ومواقف منظومة ومنثورة ، غير أنهم تمذهبوا بمذهب الباطن الباطل ، وتحلوا من اعتقاد التعطيل ، بالاعتقاد الباطل ، وقالوا بتناسخ الأجساد والحلول والاتحاد ، وأتوا من شنيع الأقوال الفادحة في المعاد بصريح الإلحاد ، واحتقبوا بالكفر معنى واسما ، وتنوعوا في مظالم العباد ، وقد خاب من حمل ظلما [1] . » اهـ

وإننا في هذه الحالة لم نشأ التوغل في تحقيق (عقيدة الخواجه الطوسي) لأنها ليست موضوع بحثنا في علم الفلك ، وإنما كان محل ذلك تاريخ العقيدة ، سوى أننا نقول إن المدرس الرضوي من أساتذة دانشكاه إيران أبدى أنه لم يتمكن من معرفة عقيدة الطوسي لأنه كان متكلماً مع المتكلمين وصوفياً مع المتصوفة ، فأراد أن يضرب في كل سهم ولم يقطع في اتجاه ديني واحد ، والملحوظ كونه أعلن أنه اثنا عشري ، وكتابه التجريد يدل على ذلك ، وهو آخر ما كتب ؛ ويُعد أيضاً من كتب العقائد عند أهل السنة لاشتراك في العقيدة ما عدا الإمامة .

وقلت في تاريخ علم الفلك في العراق :

« كان اشتغال الرجل في علم الأوائل مهماً ، ويعد أصلاً في الثقافة الفلكية

(١) كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ص ١٦١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في عصره . وكذا في العلم الرياضي وفي التنجيم ، فيعتبر من أكابر المشتغلين بها وبالفلسفة الإشراقية (الافلاطونية الحديثة) . ولا شك أن انصراف الباطنية إلى هذه العلوم كان كبيراً جداً ، أو بالتعبير الأولى اعتقدوا بصحة هذه العلوم أو اعتبروها عقيدة فمالوا إليها ميلة واحدة . والآن لم تبق لها الا قيمتها التاريخية للثقافة وتطوراتها لمختلف العصور . والغرض معرفة العلم . ولا يهم إذا اعتقد القوم أو لم يعتقدوا . وكان على كل حال أثرها في الباطنية كبيراً . وموضوع بحثنا اشتغال الخواجه بهذا العلم وما يتعلق به ولعله السبب الأكبر في تقدمه لدى هولاكو فتمكن من إقناعه في (بناء الرصد) .

وتظهر قيمة مؤلفات الخواجه الطوسي بما نالت من عناية من علماء كثيرين ، بالنقل إلى العربية وبالشرح والتعليق ، واكتسب شهرة ومكانة علمية . والاشتغال العلمي بهذه العلوم لم ينقطع من جراه أن المؤلف أدرك دقائق الفن . وزادت الاشتغالات وتكاملت من آخرين عملوا معه في الرصد . ولم تترك العلاقة بآثاره ، ومنها يتكون مجموع عظيم . وإذا كانت فقدت اليوم مكانتها العلمية فانها لم تفقد قيمتها التاريخية ، ولا التطور في تاريخ الثقافة ، فكان لها الأثر في التكامل إلى أن بلغ مدى بعيداً في هذه الأيام سواء في إتقان الآلات ، أو إيجاد آلات جديدة ، أو إثارة بحوث في طبقات الجو ، وفي علاقة أرضنا بالمجموعة الشمسية ، أو المجموعات والمنظومات الأخرى ، فالعرب مهدوا البحوث ، وطبقوا علم البحار على الفلك ، وظهر سليمان المهري وابن ماجد واضرابهما .

وهنا نقول : إن الخواجه الطوسي لم يستبد فيه ، وإنما استخدم علماء الأقطار ، واستفاد من خبرتهم ومكانتهم العلمية ، فكان الاشتغال عظيماً ، واستخدم تلاميذ للتدريب واستطلع آراءهم فتمرنوا على تقوية المعرفة ؛ وللمذاكرة والمداولة محلها في الكشف والإيضاح عن الأغراض العلمية . ومباحث الطوسي ومن معه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تستند إلى بناء الفكرة على ما عند العرب من مخلفات جمعتها خزانة مراغه ... [1] » اهـ

ثم اني ذكرت في (التعريف بالمؤرخين في عهد المغول ، والتركمان في العراق) وفصلت ترجمته وأوضحت عن رسالته التاريخية في (واقعة بغداد) ومما قلته هناك ما نصه :

« اشتهر الخواجه نصير الدين الطوسي بالعلم في مختلف الثقافات فبذل جهوداً كبيرة في تمكين ثقافات عديدة كان العراق بحاجة إلى انكشافها والتطلع إليها مثل الفلك والرياضيات والفلسفة الإشراقية (الأفلاطونية الحديثة) والعقائد وسائر ما قدم به من تأسيس رصد في (مراغة) وجمع العلماء لأجله ، وتأسيس خزانة كتب ... وتوفي في الجانب الغربي من بغداد ودفن في الكاظمين في ١٨ ذي الحجة سنة ٦٧٢ هـ .

وجرى مهرجان لإحياء ذكراه لمرور سبعمائة سنة على وفاته فقامت جامعة طهران بالأمر في يوم السبت ٥ خرداد سنة ١٣٣٥ هـ . ش ودام المهرجان إلى يوم السبت ١٢ منه . ونشرت الجامعة ما قيل في حياته ، وبينت مؤلفاته ، وطُبع بعضها ، ونُقلت بعض رسائله إلى اللغة الايرانية ، فرأينا من الأساتذة محمد دانش پژوه والمدرس الرضوي وآخرين كتبوا ما كشف كثيراً عن حياته ومؤلفاته ومنها (رسالة في فتح بغداد) على يد هولاكو .

وهذه الرسالة المهمة هي موضوع بحثنا ولم يقطع المؤرخون في صحة نسبتها إليه فلا تزال بين الأخذ والرد (وذكرت هناك تفصيلات) .

ومن أراد التوسع في حياة الخواجه الطوسي فليرجع إلى كتاب الأستاذ المدرس (الرضوي) وإلى الكتب الأخرى المطبوعة بمناسبة مهرجانه بالجامعة .

---

(١) تاريخ علم الفلك في العراق ص ٥٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا تدعو الحاجة إلى بيان ما وقع من التحامل من جراء مصاحبته هولاكو في الفتح وذكره ما يترتب على الطالع بالنظر لمخالفته (حسام الدين المنجم) ، فان الجيش أراد الهجوم على بغداد والمسارعة في أمرها ولعل هذا ما يسهل فتواه في الحرب . و (البخشية) كانوا في جهته وهم رجال الدين عند المغول .

هذا وإن حياته في مختلف صفحاتها يتكون منها تاريخ ثقافي عظيم من جراء اشتغالاته العلمية المتواصلة ، وعلاقاته بعلماء كثيرين ، وصلاته بالأقطار ، وتأثيره في العصور التالية له . ولا يكفي هذا فقد ضرب في كل نوع من الثقافة بسهم وصح أن يقال عن لسان حاله :

من بهر جمعيتي نالان شدم جفت خوش حالان وبدحالان شدم
هر كسي ازظنّ خود شديارمن وزدرون من نجست اسرارمن

لا يزال سرّه مكتوماً لم يطّلع على كنهه من اعتقد أنه صديقه الوفي أو خليله المخلص وإن كان شاركه في السرّاء والضراء وفرح لفرحه وتألّم لألمه كما هو فحوى النظم المعروف لجلال الدين الرومي صاحب المثنوي أو كما قال المتنبي :

وللسرّ مني موضع لا يناله نديم ولا يفضي إليه شراب

وعلى هذا رأى الأستاذ (المدرس الرضوي) في بيان عقيدته مما لا محلّ لتفصيله [1] . » اهـ

— نعم إنه بعد أن أكمل التحصيل رافق الإسماعيلية مدّة خمس وعشرين سنة ، فلا يقال إنه أكره على البقاء معهم ، وإنما قام بتآليف كثيرة لنصرة العقيدة الإسماعيلية ، وقد طُبع منها كتاب روضة التسليم ، وكتاب مطلوب المؤمنين ، وكتاب شرح الإشارات . ولا يوجد ما يدلّ على الإكراه ، بل تقديم هذه الكتب يدل على روابط عظيمة . وكتب أيضاً بعد احتلال بغداد

(١) التعريف بالمؤرخين ج ١ ص ٨٨ — ٩٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بعض الكتب الدالة على نزعته الأولى أو عقيدته مثل (أوصاف الأشراف) الذي قدمه إلى علاء الدين عطا ملك الجويني والي بغداد وفيه غلو لا يختلف عن غلاة التصوف ، ولا عن عقائد الإسماعيلية ، ولا عن عقائد النصيرية كما أشار إلى ذلك صاحب النبراس وصاحب سمط الحقائق الذي هو من كتب الإسماعيلية فلم يكن هناك إكراه أيام هولاكو أيضاً .

وهنا لا أمضي دون الإشارة إلى قول شيخ الإسلام ابن تيمية فانه عدّه من الإسماعيلية ، وهـذا واضح مما تقدم فهو صادق فيما قال . عاشر الإسماعيلية النزارية مدة طويلة ، وكتب في عقائدهم مؤلفات عديدة ، أما قوله بأنه نصيري فهذا يستند إلى أن التفريق بين النصيرية وبين الإسماعيلية غير واضح من جهة الاعتقاد بالوحدة والاتحاد والحلول ؛ إلا أن الوثائق الكثيرة برهنت في أيامنا وأوضحت أن الفريقين الإسماعيلي والنصيري يشتركان في الوحدة والاتحاد والحلول ؛ إلا أن الإسماعيلية يقصرون الأمر على أئمتهم ، والآخرون يقولون بهذه الأمور لكل من نالته الصفوة . ومثل هؤلاء المتصوفة والنصيرية فإنهم لا يقصرون الأمر على الأئمة وانما يشملون ذلك على كل من نالته الصفوة ؛ فمن نقطة الاشتراك نرى شيخ الإسلام ابن تيمية صادقاً في قوله إسماعيلي نصيري في رسالته (الوصية) ، ومثله صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ذكر في كتابه الوافي بالوفيات عند ذكر ترجمة الخواجه الطومي أنه اسماعيلي نصيري فلا وجه لاستغراب العلامة الأستاذ سليمان الظاهر .

ومن هذا كله نعلم أنه عاش مع الاسماعيلية ربع قرن ولم يكن مكرهاً بدليل مؤلفاته ، وأنهم لا يزالون يعتقدون بأنه اسماعيلي ، وأنه منهم . ومات على الإسماعيلية وأظهر المذهب الإثني عشري تقيةً كما في كتاب الحبل المتين وكتاب الكواكب الدرية لهم . ولم يُكرهه هولاكو ، بل أفتى بلزوم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الدوام على حرب الخليفة ، وخالف ندّه حسام الدين المنجم . ومع هـذا كله نرى الحق كل الحق لمن يعتقد في الخواجه الطوسي ما شاء . ولنا أن نبدي رأينا كما علمنا من الوثائق أنه من رجال الاسماعيلية وهم يقولون بذلك ، والمؤرخ في هذه الحالة لا يغفل النصوص للجهتين أي أن بعضهم يدعي أنه اسماعيلي مات على الإسماعيلية ، واظهر المذهب الاثنى عشري تقيةً ، وآخرون على خلاف هذا يعتقدون بأنه جعفري اثنا عشري .

اننا لا يسعنا التدخل في عقيدة الرجل ، والتفتيش عنها ، ومسئوليته من أجلها ، كما مرّ ، فله أن يعتقد ما شاء ، ولكل أن يعتقد فيه ما أراد ، فلا نتازع أحداً في ما يعتقد ، وإنما يهمنا أن نكتب ما قيل في عقيدته كما عُرف عنه . فلو قلنا إنه اثنا عشري بدليل أنه أعلن في همذان أنه كذلك وكتب كتاب التجريد في العقائد الإمامية لكنا أغفلنا ناحية أخرى يدعيها الإسماعيلية وهي أنه اسماعيلي وأنه أظهر التشيع الاثنى عشري تقيةً ، أو لو قلنا إنّه من غلاة التصوف بكتابه أوصاف الأشراف وإنه يشترك به مع النصيرية لما عدونا الحقيقة ، فمن الضروري أن نقول : إنه اسماعيلي مع الإسماعيلية ومتصوف مع غلاة التصوف ونصيري مع النصيرية واثنا عشري مع الاثنى عشرية . ونزيد أنّه متكلم من أهل السنة مع المتكلمين الا في الإمامة فانه خالف فيها أهل السنة . أو نقول كما قال الأستاذ المدرس الرضوي ؛ إننا لم نقف على حقيقة مذهبه ، ولكنه يصح أن ننسب إليه كل هذه المذاهب بصفتنا مؤرخين فلا نغفل أمراً من أمور هذه المذاهب التي يعتقدها ولم يمكن ترجيح واحد منها . وإذا أضفنا إلى ذلك قول جماعة من الإمامية الاثنى عشرية في ذمه من جهة العقيدة زدنا في الطين بله . والحكم عليه بعقيدة ما ليس من شأننا وانما ندوّن ما قيل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان الأولى بالأستاذ أن يلاحظ جميع ما قيل ويحقق ويثبت أو ينفي ما أراد وما أدى إليه تتبعه دون أن يقطع في أمر بلا تفنيد ما عارضه من آراء وله الفضل في إثارة هذا المطلب . وقد أحببت بسطه للقراء الأفاضل ليروا رأيهم في الخواجة الطومي .

وهذا لا يهمني وليس من شأني الحكم بما يعتقد في نفس الأمر .

هذا ولم نقف على كتاب في الشريعة للخواجه الطومي ويسرنا جداً أن نقف على ما عنده من مؤلفات في هذا الموضوع .

ويلاحظ أن علماء كثيرين من السنة طعن فيهم بعض العلماء منهم . ولا ننظر في هذه الحالة الا للأدلة الظاهرة والتوجيه فنرى الترجيحات متضاربة ومن هذا القبيل مترجمنا . والسبب في ذلك أنه لازم الفلسفة الإشراقية طول حياته وهي أصل عقيدة الأبطان أو الاسماعيلية والمتصوفة كما أكدها في كتاب أوصاف الأشراف وبمراسلاته لصدر الدين القونوي المتصوف المعروف بغلوه .

ومن جهة أخرى إنه أذاع كتب الاشراق . وفي أيامه ظهر منهم الشهرزوري صاحب (الشجرة الالآهية) و (أخبار الحكماء) وآخرون عديدون في حين أنه كان معاقباً على هذه العلوم ومطارداً أهلوها .

(بغداد) عباس العزاوي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net